



## الدلالات الثقافية في تصوير الحرب بالناقة لدى شعراء ما قبل الإسلام •

د . محمد سليمان عبد الحفيظ\*

الحرب هي مظهر من مظاهر الثقافة الاجتماعية الشائعة لدى العرب في عصر ما قبل الإسلام ، وهو مظهر لم يكن محبوباً أو مرغوباً فيه ، وإنما شاع نتيجة عوامل بيئية واجتماعية واقتصادية ونفسية وسياسية .

وعلاقة الحرب بالشعر علاقة متينة ، فهي من أقوى دواعي إبداع الشعر ونظمه وإنشاده ، بما تثيره من عواطف ، وتلهبه من مشاعر ، وبما يعقبها من نتائج ، وتخلفه من آثار .

وإذا كان الشاعر كما يقول ابن رشيق: هو الذي « يشعر بما لا يشعر به غيره»<sup>(1)</sup> فإن حديثه عن الحرب ، وخوضه في دوافعها ومثيراتها ، وفي تفصيلاتها ومجاري أحداثها ، وفي آثارها ونتائجها ، عادة ما يكون أكثر وأبلغ وأقوى تأثيراً من حديث غيره ، وهو حديث لم يكن مرتبطاً بغرض واحد من أغراض الشعر ، وإنما جاء في معظم أغراضه المعروفة ؛ كالحماسة ، والفخر ، والمدح ، والرثاء ، والهجاء ، والوصف ، والحكمة ، وغيرها<sup>(2)</sup> .

وقد تنبه النقاد القدماء إلى أثر الحرب في دفع الشعراء إلى نظم

• المقصود بشعراء ما قبل الإسلام في هذه الصفحات ، هم الشعراء الذين عاشوا ثقافة ما قبل الإسلام ، سواء الذين أمضوا كامل حياتهم في العصر الجاهلي ، أو الذين أدركوا الإسلام .  
\* الجامعة الأسمرية ، ليبيا .

(1) ابن رشيق القيرواني ، العملة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، حققه وفصله وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط5 ، 1401 هـ - 1981 م ، 1 / 116 .

(2) ينظر: علي الجندي ، شعر الحرب في العصر الجاهلي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط3 ، 1966 م ، ص73 وما بعدها .

الشعر والإكثار منه ، الأمر الذي دفع بعضهم إلى تبرير كثرة شعر بعض القبائل أو قتلته إلى كثرة حروبها وغزواتها أو قتلها . قال ابن سلام الجمحي: « وإنما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء ، نحو حرب الأوس والخزرج ، أو قوم يغيرون ويغار عليهم ، والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عمان»<sup>(1)</sup> .

والتصوير هو أبرز خصائص الشعر النوعية ، وهو لا يتأتى ، أو لا يكون له معنى ودلالة ، إلا مع وجود مخزون ثقافي أو وجد نوعاً من العلاقة بين المصور والمصور به ، سواء أكانت هذه العلاقة واقعية أم رمزية ، شكلية أم معنوية ، يعيها الشعراء وغيرهم من أبناء الثقافة الواحدة ، أو مضمرة في اللاوعي .

ودرج شعراء ما قبل الإسلام على تصوير الحرب بالعديد من العناصر والمظاهر الثقافية الشائعة في بيئتهم الطبيعية والاجتماعية ، من أهمها: النار ، والرحى ، والحيوان المفترس ، والناقة .

فصورها بالنار ، لكونها تهلك المتحاربين ، وتؤدي كل من يطاله أمرها ، كما تلتهم النار الحطب ، وتؤدي كل من يصل إليه لهيها ؛ وصورها بالرحى ، لكونها تبيد الناس وتهلكهم ، كما تطحن الرحى الحب وتصيره دقيقاً ؛ وصورها بالحيوان المفترس المكشّر عن أنيابه ، لتأذي الناس منها وكراهيتهم لها ، كتأذيتهم من الحيوان المفترس وكرههم له .

وإذا كانت العلاقة بين الحرب والنار ، أو الرحى ، أو الحيوان المفترس ، يمكن تصورها وتبادرها إلى الأذهان دون عناء ومشقة ، فإن العلاقة بين الحرب والناقة ، علاقة بعيدة ليس من السهل إدراكها وتصورها ، وذلك لعدة أسباب من أهمها:

1 - ارتباط الحرب في الثقافة العربية بالشر والموت ، وارتباط الناقة في الجانب الأبرز من هذه الثقافة بالخير والحياة ؛ فهي حيوان نافع مبارك يرمز للأمان والنجاة واستمرار الحياة<sup>(2)</sup> .

(1) محمد بن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، قرأه وشرحه أبو فهر محمود محمد شاكر ، دار المدني ، جدة ، د . ت ، 1 / 259 .

(2) ينظر: محمد سليمان عبد الحفيظ ، أثر المكونات الثقافية في بناء الصور البلاغية ، رسالة دكتوراه ،

يقول امرؤ القيس:

فَعَزَّيْتُ نَفْسِي حِينَ بَانُوا بِجَسْرَةٍ ❖ أَمُونِ كَبْنِيَانِ الْيَهُودِيِّ خَيْفَقَ (1)  
ويقول الأعشى:

فَدَعُ دَا وَلَكِنْ رَبَّ أَرْضٍ مَتِيهَةٍ ❖ قَطَعْتَ بِحَرْجِ جَوْجٍ إِذَا اللَّيْلُ أَظْلَمَا  
بِنَاجِيَةٍ كَالْفَحْلِ فِيهَا تَجَاسَرُ ❖ إِذَا الرَّأَكِبُ النَّاجِيِ اسْتَقَى وَتَعَمَّمَا (2)

2 - تنوع الصور التي جاءت في تصوير الحرب بالناقة ، الأمر الذي أدى إلى تنوع العلاقة فيها ، وإلى فتح المجال لاستنتاج عدة دلالات عند تحليل الصور ودراستها .

3 - أن بناء هذه الصور لم يكن بطريقة مباشرة بالاعتماد على أسلوب التشبيه أو أسلوب الاستعارة التصريحية ، وإنما جاء عن طريق إثبات بعض خواص الناقة ولوازمها للحرب ، وهذا الأسلوب يسمى في اصطلاح البلاغيين استعارة مكنية واستعارة تخيلية (3) .

وقد تعددت خواص الناقة ولوازمها التي أثبتتها الشعراء للحرب في صورهم ، فمنها ما كان متعلقاً بسن الناقة ، يقول قبيصة بن جابر:

فَلَسْنَا مِنْ بَنِي جَدَاءَ بِكِرٍ ❖ وَلَكِنَّا بَنُو جِدِّ النَّقَالِ (4)

ويقول مالك بن عجلان:

أَبْنَاءَ حَرْبِ الْحَرْبِ ضَرَسْنَا ❖ أَبْكَارَهَا وَالْعُونَ وَالشَّرَفِ (5)

معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، 2009م ، ص345 وما بعدها .

(1) امرؤ القيس ، ديوانه ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، 406 هـ - 1986 م ، ص134 ، أمون: أمينة ووثيقة الخلق أمنت العثار والإعياء ، الخيفق: السريع .

(2) الأعشى ، ديوانه ، تحقيقه كامل سليمان ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط1 ، د . ت ، ص190 . متيهة: مضلة ، الحرجوج: الناقة الضامرة ، التجاسر: القوة والبأس ، تعمم: لبس العمامة .

(3) ينظر: الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، تحقيق ودراسة عبد القادر حسين ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط1 ، 1416 هـ - 1996م ، ص352 - 354 .

(4) المرزوقي ، شرح ديوان الحماسة ، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ط1 ، 1411 هـ - 1991م ، 2 / 707 . الجداء: الناقة المقطوعة الثدي ، البكر: التي ولدت بطناً واحداً النقال: تكرر الولادة .

(5) أبو زيد القرشي ، جمهرة أشعار العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط2 / 1418 هـ - 1998م ، ص226 . ضرسنا: حنكنا وجرنا ، الأبكار: جمع بكر ، العون: جمع عوان وهي النصف في سنها لا صغيرة ولا كبير ، الشرف: جمع شارف وهي الكبيرة في السن .

- ومنها ما كان متعلقاً بأعضاء جسمها ، يقول خراشة العبسي:
- وعذرة قد حكت بها الحرب بركها ❖ وألقت على كلب جراناً وكلكلاً(1)
- ويقول العباس بن مرداس:
- في مأزقٍ من مجرّ الحرب كلكها ❖ تكاد تأفل منه الشمس والقمر(2)
- ومنها ما كان متعلقاً بوضع من أوضاعها المختلفة ، يقول النابغة  
الذبياني:
- فذاق الموت من بركت عليه ❖ وبالنّاجين أظفار دّوام(3)
- ويقول معبد بن علقمة العبشمي:
- ولا تبعثوها بعد شدّ عقالها ❖ دميمة ذكر الغب للمتعب(4)
- ومنها ما كان متعلقاً ببعض أوصافها الشائعة ، يقول بشر بن أبي  
خازم:
- وأنكاس إذا استعرت ضروس ❖ تخلى من مخافتها النساء(5)
- ويقول كعب بن مالك:
- بنا كيف نفعل إن قلصت ❖ عواناً ضروساً عضواً حجونا(6)

- (1) المفضل الضبي ، المفضليات ، تحقيق وشرح محمود محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 8 ، د . ت ، المفضلية رقم (121) ، ص 406 . البرك: الصدر ، الجران: باطن العنق ، الكلكل: الصدر .
- (2) ابن هشام ، السيرة النبوية ، حققها وشرحها ووضع فهارسها: مصطفى السقا وإبراهيم الأياري وعبد الحفيظ شلبي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د . ت ، 4 / 109 . المأزق: المكان الضيق في الحرب ، تأفل: تغيب .
- (3) النابغة الذبياني ، ديوانه ، شرح وتقديم عباس عبد الستار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، 1405 هـ - 1984 م ، ص 67 .
- (4) الخالديان ، كتاب الأشباه والنظائر ، حققه وعلق عليه السيد محمد يوسف ، دار الشام للتراث ، بيروت ، د . ت ، 2 / 272 . الغب: العاقبة والغاية .
- (5) بشر بن أبي خازم ، ديوانه ، عني بتحقيقه عزة حسن ، دار الشرق العربي ، بيروت - لبنان ، حلب - سورية ، 1416 هـ - 1995 م ، ص 56 . أنكاس: جمع نكس بكسر النون وهو الضعيف المقصر عن غاية الجود والكرم من الرجال ، استعرت: اشتعلت ، الضروس من النوق: هي السيئة الخلق الشديدة ، والمراد بها هنا الحرب الشديدة ، تخلى نساء: تلجأ للخلاء ، أي تظهر من الفرع .
- (6) كعب بن مالك ، ديوانه: دراسة وتحقيق سامي مكّي العاني ، عالم الكتب ، بيروت ، ط 2 ، 1417 هـ - 1997 م ، ص 213 . قلصت: كناية عن شدة الحرب .

وأول ما يتبادر إلى الذهن في تفسير هذه الصور وبيان دلالتها ، أن المقصود بالجاء البكر ، هو الحرب الأولى الضعيفة اليسيرة الأذى والشر ، وبالناقة ، الحرب المتكررة الصعبة المراس ، وبالناقة البكر ، الحرب الأولى ، والناقة العوان ، الحرب التي قوتل فيها مرة بعد مرة ، والناقة الشارف ، الحرب القديمة التي طال أمدها ، والمقصود من أن للحرب جرناً وكلكلاً ، هو شدة الحرب وقوتها ، ومن إلقائها على قوم ما جرناها وكلكها ، أو من بروكها عليهم ، هو ثقل وقوع الحرب عليهم ، وانهزامهم فيها ، وقضاؤها المبرم عليهم ، والمقصود من بعثها بعد شد عقالها ، هو إثارتها بعد هدوئها وخمودها ، ومن كونها ضروساً عضوضاً حجوناً ، أنها منكرة شديدة الإيذاء .

وإذا كان لهذه الصور دلالات قريبة يمكن أن تتبادر إلى الذهن ، فإن لها بالأحرى مخزوناً ثقافياً ساهم في بنائها وتشكيلها ، وفي تحديد العلاقة بين عناصرها .

فالحرب هي مظهر من أبرز مظاهر الثقافة الاجتماعية السائدة في المجتمع العربي في عصر ما قبل الإسلام ، تعددت أسبابها وأشكالها ، وتنوعت آثارها ونتائجها ، بل إنها مركب ثقافي اشتمل على العديد من المظاهر والعناصر الثقافية .

والناقة هي عنصر من أبرز عناصر المكون الطبيعي للثقافة العربية في ذلك العصر ، كان له تأثير وتأثر ببقية مكونات الثقافة الأخرى .

وعليه فإن العلاقة بين الحرب والناقة ، هي علاقة بين أبرز مظهر من مظاهر الثقافة الاجتماعية ، وأبرز عنصر من عناصر الثقافة الطبيعية ، كانا لهما تأثير وتأثر بمختلف مكونات الثقافة الدينية والأسطورية ، والاقتصادية ، والأدبية ، وغيرها ، ولذلك فإن استحضار أوجه الشبه والاتفاق بينهما ، وتبادرها إلى الأذهان ، لا يختص بجماعة دون أخرى ، أو بطائفة دون غيرها ؛ مبدعين كانوا أو متلقين ، لأن تأثير مكونات الثقافة يعم الجميع ، لكن المثير للانتباه ، ليس مجرد استحضار الصور المتعلقة بالناقة ، وإنما استحضار هذه الصور عند الحديث عن الحرب وتشكيل صورها الشعرية ؛ لأن الحرب مظهر من مظاهر الشؤم والشر ، يرمز للفرع والموت والدمار ، والناقة في الجانب الأبرز من الثقافة العربية عنصر نافع مبارك يرمز للخصب والأمان والنجاة واستمرار الحياة ، وهذا قد يقود إلى

الحكم بوجود تنافر بين عناصر الصور ، منشؤه تعارض بنائها مع ذوق المجتمع وثقافته ، لكن البحث في التراث العربي الثقافي في عصر ما قبل الإسلام ، يزيل ما يمكن حدوثه من لبس ، ويظهر وجود مسوغ لما يمكن أن يقال عنه عند الوهلة الأولى بأنه تنافر أو تعارض .

فالبحث في هذا التراث يظهر أن الناقه في جانب من جوانب الثقافة العربية القديمة ، حيوان ضار مشؤوم يرمز للموت والخراب ، وهذه الثقافة أو هذه الرمزية كانت متغلغلة في أعماق الشعراء وغيرهم من أبناء المجتمع ، فهي التي دفعتهم إلى اعتبارها أشأم من غراب البين ، وهو الذي يضرب به المثل في الشؤم<sup>(1)</sup> . يقول عوف الراهب:

غَلِطَ الَّذِينَ رَأَيْتَهُمْ بِجَهَالَةٍ ❖ يَلْحُونَ كُلَّهُمْ غَرَاباً يَنْعِقُ  
مَا الذَّنْبَ إِلَّا لِلْأَبْعَرِ إِنَّهَا ❖ مِمَّا يَشْتَتَّ جَمِيعَهُمْ وَيَفْرُقُ  
إِنَّ الْغَرَابَ بِيَمْنِهِ تَدْنُو النَّوَى ❖ وَتَشْتَتَّ الشَّمْلَ الْجَمِيعَ الْإَيْنِقَ<sup>(2)</sup>

ويقول آخر:

وَمَا الشُّؤْمُ فِي نَعْبِ الْغَرَابِ وَنَعْقِهِ ❖ وَمَا الشُّؤْمُ إِلَّا نَاقَةٌ وَبَعِيرٌ<sup>(3)</sup>

ومن المرجح أن يكون لناقة صالح ، ثم ناقة البسوس ، تأثير في شيوع هذه الرمزية وتغلغلها في أعماق الشعراء ، أو في أعماق غيرهم من أبناء المجتمع ، فقد أدى عقور الأولى إلى هلاك ثمود قوم صالح عليه السلام ، وخراب أرضهم وديارهم<sup>(4)</sup> . وأصبح عاقرها مضرِباً للمثل في الشؤم ، وفي ذلك يقال: «أشأم من أحمر عاد»<sup>(5)</sup> والمقصود أحمر ثمود . يقول زهير بن أبي سلمى متمثلاً بهذا المثل في وصف الحرب:

(1) ينظر: الميداني ، مجمع الأمثال ، دار ومكتبة الحياة ، بيروت ، 1415هـ - 1995م ، 1 / 533 - 535 .

(2) الحصري القيرواني ، زهر الآداب وثمر الألباب ، عارضه بمخطوطات القاهرة وحققه وضبطه وشرحه ووضع فهارسه علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البايي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ط2 ، د . ت ، 1 / 480 .

(3) ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر ، بيروت ، د . ت ، 169 / 6 .

(4) ينظر: الثعالبي ، قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، د . ت ، ص 58 - 62 .

(5) أبو هلال العسكري ، كتاب جمهرة الأمثال ، دار الجيل ، بيروت ، ط2 ، 1408 هـ - 1988م ، 1 / 558 .

فَتَنْتَجِ لَكُمْ غُلْمَانَ أَشْأَمَ كُلِّهِمْ ❖ كَأَحْمَرَ عَادٍ ثُمَّ تَرْضِعُ فَتَقْطِمِ<sup>(1)</sup>

أما الثانية وهي ناقة البسوس ، فقد أدى عقرها إلى مقتل عاقرها ، مما تسبب في نشوب حرب بين حيين من أحياء العرب ، استمرت زهاء الأربعين سنة ، وقطع ما بينهما من صلوات رحم<sup>(2)</sup> . وأصبحت هذه الناقة وصاحبتهما مضرباً للمثل في الشؤم ، فقيل: «أشأم من البسوس ، وأشأم من سراب»<sup>(3)</sup> .

وأسهمت بعض المعتقدات الدينية المتمثلة في دفن الناقة مع الميت ، أو ربطها عند قبره إلى أن تموت ، في ترسيخ هذه الرمزية ، فقد كان بعضهم إذا حضره الموت ، يقول لولده: «ادفنوا معي راحلتي حتى أحشر عليها ، فإن لم تفعلوا حشرت على رجلي . . . وكانوا يربطون الناقة معكوسة الرأس إلى مؤخرها مما يلي ظهرها ، أو مما يلي كلكها وبطنها ، ويأخذون «ولية» فيشدون وسطها ويقلدون عنق الناقة ويتركونها كذلك حتى تموت عند القبر ، ويسمون الناقة «بلية» والخيط الذي تشد به «ولية»<sup>(4)</sup> . وفي ذلك يقول عويمر النبهاني:

أَبْنِيَّ لَا تَنْسَ الْبَلِيَّةَ إِنَّهَا ❖ لِأَبِيكَ يَوْمَ نَشُورِهِ مَرْكُوبِ<sup>(5)</sup>

كما لا يمكن في هذا السياق ، إغفال تأثير بعض مظاهر الثقافة الاجتماعية التي كانت شائعة إلى وقت ظهور الإسلام ، والمتمثلة في صراع القبائل والعشائر على المراعي وموارد المياه ، وما ينتج عنه من حروب لا تخلف إلا الموت والدمار ، أو المتمثلة في الصعلكة وقطع الطرق والإغارة على الآخرين للاستيلاء على إبلهم ، وما يترتب على ذلك من حروب وغارات وثورات لا تنتج إلا الموت والهلاك ، سواء في جانب المغيرين ، أو في جانب المغار عليهم .

وقد أصبحت هذه الرمزية ، التي تسببت فيها تلك الحوادث

(1) زهير بن أبي سلمى ، شعره ، تحقيق فخر الدين قباوة ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط3 ، 1400هـ - 1980م ، ص 19 .

(2) ينظر: ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 6 / 59 - 67 .

(3) أبو هلال العسكري ، كتاب جمهرة الأمثال ، 1 / 556 . سراب: اسم هذه الناقة .

(4) الشهرستاني ، الملل والنحل ، تقديم وإعداد: عبد اللطيف محمد العبد ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط1 ، 1977م ، ص 586 - 587 .

(5) الألويسي ، بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب ، عني بشرحه وتصحيحه وضبطه: محمد بهجة الأثري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د . ت ، 2 / 309 .

والمعتقدات ، جزءاً من ثقافة العرب في ذلك العصر ، الأمر الذي أدى إلى تأثيرها على الشعراء وبناء صورهم الشعرية .

فالشاعر عندما يصور الحرب بالناقة ، أو يثبت للحرب بعض لوازم الناقة وخواصها ، فإنه يستمد هذه الخواص واللوازم من الواقع الثقافي الذي يعيش فيه والشائع بين أبناء المجتمع ، والذي تعد فيه الناقة وما يتعلق بها ، ركناً من أركانه الأساسية ، كما أنه يستحضر صورة ناقة ثمود ، وناقة البسوس ، والناقة البلية ، وغيرها من النوق التي ارتبطت بالموت والخراب في الثقافة العربية ؛ وقد يكون الشاعر واعياً لهذا الاستحضار عند تصوير الحرب بالناقة ، وقد لا يعي هذا الأمر ، لكن مع ذلك فإن صور هذه النوق وما ارتبطت به من وقائع ومظاهر ، تعيش في أعماقه ، وتمثل جزءاً من مخزونه الثقافي ، ومن ثم فإن استحضارها قد يأتي بوعي أو بدون وعي .

وتصوير الحرب بالناقة لم يكن مقتصرًا على مثل نماذج الصور التي تم عرضها ، وإنما كانت هناك صور أخرى أكثر شيوعاً بين الشعراء من الصور السابقة ، هذه الصور هي التي جاءت في تصوير الحرب بالناقة اللاقح ، والناقة اللاقح هي التي حملت من الفحل بعد أن ضربها وقبلت ماءه<sup>(1)</sup> . وقد تنوعت أساليب الشعراء في بنائهم لهذه الصور بحسب ما يضيف على هذه الناقة من أوصاف وأحوال ، أو عدمه .

فأحياناً يكون التصوير بالناقة اللاقح مجرداً من ذكر أوصاف وأحوال أخرى . يقول جساس بن مرة:

فَاصْبِرْ لِبَكْرِ فَإِنَّ الْحَرْبَ قَدْ لَقِحَتْ ❖ وَعَزَّ نَفْسَكَ عَمَّنْ لَا يُوَالِيهَا<sup>(2)</sup>

ويقول سلامة بن جندل:

وَتَغْلِبْ إِذْ حَرَبُهَا لَاقِحٌ ❖ تَشَبَّ وَتَسْعَرُ نِيرَانَهَا<sup>(3)</sup>

وأحياناً يضيفون بعض الأوصاف والأحوال المتعلقة بعملية الإلقاح ، منها:

(1) ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط3 ، 1414هـ - 1994م ، مادة لفتح .  
(2) الأب لويس شيخو ، شعراء النصرانية في الجاهلية ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، د . ت ، 3 / 250 .  
(3) سلامة بن جندل ، ديوانه ، صنعة محمد بن الحسن الأحول ، تحقيق: فخر الدين قباوة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط2 ، 1407 هـ - 1987م ، ص255 .



1 - كون الإلقاح جاء بعد فترة حِيال . يقول الحارث بن عباد:

قَرَّبًا مَرَبَطَ النِّعَامَةَ مِنِّي ❖ لَقِحْتُ حَرْبٌ وَأَثَلٌ عَن حِيَالٍ (1)

ويقول عبيد بن الأبرص:

قَوْمِي بَنُو دُودَانَ أَهْلُ النَّهْيِ ❖ يَوْمًا إِذَا أَلْقَحْتَ الْحَائِلَ (2)

2 - تأكيد إتمام عملية الإلقاح بإحدى علاماته البارزة وهي الشولان بالذنب . يقول عمرو بن كلثوم:

وَمَا أَنْفَكَ مِنَّا مِنْذُ كُنَّا عِمَارَةً ❖ إِذَا الْحَرْبُ شَالَتْ لِأَفْحًا مِنْ يَقُودِهَا (3)

ويقول تميم بن مقبل:

حَتَّى تَشُولَ لِقَاحًا بَعْدَ قَارِحِهَا ❖ تَحَرَّبُوهَا كَحَرْبِ الذَّنْبِ لِلْغَنَمِ (4)

3 - ذكر الحال التي تمت بها عملية الإلقاح ، أو حال الناقة عند إتمام هذه العملية ، يقول زهير بن أبي سلمى:

فَتَعْرَكُكُمْ عَرَكُ الرَّحَى بِثِفَالِهَا ❖ وَتَلْفَحُ كِشَافًا ثُمَّ تَحْمِلُ فَتَنْتَمِ (5)

ويقول قيس بن الخطيم:

وَنَلْفَحَهَا مَبْسُورَةً ضَرْزَبِيَّةً ❖ بِأَسْيَافِنَا حَتَّى نَذِلَّ إِيَّاهَا (6)

4 - بيان أهلية الناقة لإتمام عملية التلقيح ، بأنها عوان في سنها ؛ لاصغيرة ولا كبيرة ، يقول مالك بن عجلان:

أَبْلُغْ بَنِي جِحْجَبِي فَقَدْ لَقِحْتُ ❖ حَرْبٌ عَوَانٌ فَهَلْ لَكُمْ سَلَفٌ (1)

(1) الأب لويس شيخو ، شعراء النصرانية في الجاهلية ، 3 / 272 .

(2) عبيد بن الأبرص ديوانه ، تقديم وشرح وتعليق: محمد حمود ، دار الفكر اللبناني ، ط 1 ، 2000م ، ص 87 .

(3) عمرو بن كلثوم ، ديوانه ، ضمن دواوين الموسوعة الشعرية المسجلة على قرصين CD ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، الإصدار الثالث ، 2003م . شالت الناقة: رفعت ذنبها للفحل علامة على لقاحها .

(4) ابن قتيبة ، كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، 405 هـ - 1984م ، 2 / 995 . القارح: الناقة أول ما تحمل ، وقيل: هي أيام يقرعها الفحل .

(5) زهير بن أبي سلمى ، ديوانه ، ص 19 . تعرككم: تطحنكم وتهلككم ، الثفال: جلد يكون تحت الرحى يقع عليه الدقيق .

(6) قيس بن الخطيم ، ديوانه ، تحقيق: ناصر الدين الأسد ، دار صادر ، بيروت ، د . ت ، ص 51 . بسر الفحل الناقة إذا ضربها على غير ضيعة .

ويقول المزرد بن ضرار:

وَعِنْدِي إِذَا الْحَرْبُ الْعَوَانُ تَلَقَّحَتْ ❖ وَأَبْدَتْ هَوَادِيهَا الْخُطُوبَ الزَّلَازِلَ (2)

وقد يضيفون إلى وصفها بالعوان وصفها بأوصاف أخرى ، مثل: الضرّ ، وسوء الخلق والكرهية ، وعصل الأنياب . يقول زهير بن أبي سلمى:

إِذَا لَقِحَتْ حَرْبٌ عَوَانٌ مُضِرَّةٌ ❖ ضَرَّوْسٌ تَهْرَأُ النَّاسَ أَنْيَابَهَا عَصَلٌ (3)

فهذه الصورة تشتمل على ثلاث دلالات: دلالة صريحة ، ودلالة ضمنية ، ودلالة مضمرة .

فالدلالة الصريحة هي المبالغة في وصف الحرب بالقوة والشدة والفضاعة ، والتهويل مما تحمله من أخطار ، وينتج عنها من ويلات ، وهذه الدلالة يعيها الشعراء عند بنائهم لهذه الصور ، كما أنها أولى الدلالات التي تتبادر إلى أذهان المتلقين ، وهي الدلالة التي قال بها معظم شراح الدواوين والمجموعات الشعرية ، وهذه الدلالة جاءت نتيجة تأثير الثقافة الواقعية المستمدة من الواقع ، وبخاصة المتعلقة بالحرب .

والدلالة الضمنية في هذه الصور ، هي أن الناقة اللاقح التي صورت بها الحرب ليست ذلك الحيوان النافع المبارك الذي يرمز للأمان والنجاة واستمرار الحياة ، وإنما هي حيوان ضار مشؤوم يرمز للموت والخراب ، وهذه الدلالة يعيها بعض الشعراء ولا يعيها البعض الآخر ، لكنها بالتأكيد كانت حاضرة في وعي أوائل الشعراء الذين أبدعوا مثل هذه الصور ، وهذه الدلالة جاءت نتيجة تراكمات ثقافية ؛ بعضها قديم ، وبعضها جديد ، بعضها طبيعي ، وبعضها اجتماعي ، والبعض الآخر أدبي ، أو ديني وأسطوري .

أما الدلالة المضمرة ، فالمقصود بها الدلالة النسقية ، وهي دلالة لا يعيها الشعراء عند نظمهم للأبيات وبنائهم للصور ، وتتسرب غير ملحوظة من باطن النص ، ناقضة منطق الصورة ذاتها ودلالاتها الصريحة

(1) أبو زيد القرشي ، جمهرة أشعار العرب ، ص 226 . سدف: سترة .  
 (2) المفضل الضبي ، المفضليات ، المفضلية رقم (7) ص 95 . هواديا: أوائلها ، الزلازل: الأمور التي يصيب الناس منها كالزلزلة لشدتها .  
 (3) زهير بن أبي سلمى ، ديوانه ، ص 36 . تهرّ الناس: أي تصيرهم يهرونها أي يكرهونها .

والضمنية<sup>(1)</sup> .

والدلالة النسقية في هذه الصور ، هي دلالة الخصوبة ، وهي دلالة عبر عنها الشعراء دون وعي منهم ، من خلال استحضار صورة الناقة اللاقح وتوابعها عند تصوير الحرب وملحقاتها ، فالناقة اللاقح هي رمز للخصوبة ؛ لأن التلقيح هو الركن الأول والركيزة الأساسية ليس في خصوبة الناقة فحسب ، وإنما في خصوبة الإنسان والحيوان والشجر وغيرها ، فهو الممارسة الفعلية لعملية الإخصاب وبدونه لا وجود لحمل وتناج .

وهذه الدلالة النسقية ، أي دلالة الخصوبة ، تعني الخير والحياة ، وهي تختلف وتتعارض مع الدلالة الصريحة المتمثلة في الحرب الشديدة الفضيعة ، والتي تعني الشر والموت ، كما تتعارض مع الدلالة الضمنية التي تشير إلى الناقة الضارة المشؤومة ، المرتبطة في الأذهان بالشر والموت .

فالشعراء في هذه الأبيات يعبرون عن مظهر من مظاهر الشر والموت هو الحرب ، من خلال تصويره برمز من رموزها وهو الناقة الضارة المشؤومة ، لكن أعماقهم تنشد الخصب وتتوق إليه ؛ ولهذا تسربت أبرز أركانه ودلائله إلى بنية الصور دون قصد منهم إلى ذلك .

واستحضار الشعراء لصور الخصب ومظاهره ، يمثل شكلاً من أشكال الهروب اللاشعوري من واقع مكروه فرضته ظروف بيئية واجتماعية واقتصادية ، إلى حياة ينشدونها ، وصور ومظاهر لها في نفوسهم مكانة خاصة « ولعل الحرمان وندرة المياه ، وجذب الأرض ، هو الذي جعلهم يببالغون في تقدير الخصب ، ويرون له رونقاً خاصاً في هذه البيئة الجرداء»<sup>(2)</sup> ، ودفعهم إلى استحضار صورته حتى عند حديثهم من مظاهر الشؤم والموت الخراب .

يتضح مما سبق أن بناء هذه الصور أو التعبير بها ، قد تقاطع فيه الوعي مع اللاوعي ، والصريح مع الضمني ، والاجتماعي مع البيئي ، والوقائع مع الرموز ، والواقع المعاش مع المأمّل المنشود .

(1) ينظر عبد الله الغنامي ، النقد الثقافي ، رؤية جديدة ، مجلة فصول ، القاهرة ، العدد 59 ، ربيع 2002م ، ص 45 - 53 .

(2) نوري حمودي القيسي ، الطبيعة الشعر الجاهلي ، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط 1 ، 1390 هـ - 1970م ، ص 45 .

وهذا التقاطع في بناء الصور أو التعبير بها ، والتأثير العميق لفكرة الخصوبة ، أو تسرب النسق الخصوبي لصور الشعراء ، لم يقف عند الصور التي جاءت في تصوير الحرب بالناقة اللاقح ، وإنما تعداه لصور أخرى للحرب ، وهي الصور التي جاءت في تصويرها بالناقة الحلوب ومتعلقاتها ، يقول قيس بن الخطيم:

وَأَنَا إِذَا مَا مَمْتَرِ الْحَرْبِ بَلَحُوا ❖ نَقِيمُ بِأَسْبَادِ الْعَرِينِ لِوَأَهَا(1)

ويقول عامر بن الطفيل:

نَشَدُ عَصَابَ الْحَرْبِ حَتَّى نَدِرَهَا ❖ إِذَا مَا نَفُوسِ الْقَوْمِ طَالَعَةَ الثَّغْرِ(2)

ويقول الأعشى:

يَهْمُ تَمْتَرِ الْحَرْبِ الْعَوَانَ وَمِنْهُمْ ❖ تُوَدِّي الْفُرُوضِ حَلُوهَا وَمَمْرِهَا(3)

ويقول كعب بن مالك:

أَلْسَنَا نَشَدُ عَلَيْهَا الْعِصَا ❖ بَ حَتَّى تَدْرَ وَحَتَّى تَلِينَا(4)

فاستدرار اللبن من الناقة ، يعني أنها ناقة خصبة وافرة اللبن في ضرعها ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، فإن وجود الحليب في ضرع الناقة ، يكون بعد حملها وولادتها ، والحمل والولادة هما المظهر الأبرز لخصوبة الكائن الحي ، ولولاهما لما كان هناك لبن ، يضاف إلى ذلك أن وجود اللبن في ضرع الناقة ، دليل على خصوبة الأرض ووفرة الكأ ، ولو كان الأمر غير ذلك ، لكانت النوق عجاف واللبن منعدم في ضروعها .

وهذه الدلالة النسقية المضمرة التي تسربت إلى الصور ، تخالف وتعارض الدلالة الصريحة المتمثلة في تصوير استشارة الحرب والإكثار من القتل والتخريب ، باستدرار اللبن من الناقة ، كما تخالف الدلالة الضمنية التي توحي بأن الناقة في هذه الصور هي ناقة ضارة مشؤومة ترمز للموت

(1) قيس بن الخطيم ، ديوانه ، ص 50 . ممتدو الحرب: الذين يستدرونها ، وهذا مثل ، يقال: مريت الناقة إذا مسحت ضرعها لتدر ، بلحوا: أعيوا ، الأسباد جمع سبد ، والسبد الذئب والداهية ، وهو

سبد أسباد وداهية في اللصوصية ، وعنى بأسباد العرين: الأسود

(2) عامر بن الطفيل ، ديوانه ، لايل ، لندن ، ط 1 ، 1913 م ، ص 139 . العصاب: ما يشد به فخذي الناقة أو أدنى منخريها لتدر ، ودرت الناقة: إذا حلبت فأقبل على الحالب منها شيء كثير .

(3) الأعشى ، ديوانه ، ص 69 .

(4) كعب بن مالك ، ديوانه ، ص 213 .

والهلاك .

بقت الإشارة إلى أن هذه الصور التي جاءت في تصوير الحرب بالناقة ، أو وصف الحرب بأوصاف الناقة ، سواء أكانت هذه الناقة لائقاً أم كانت حلوباً ، لم تكن من قبل الصور القليلة النادرة ، وإنما هي من الصور الشائعة بين الشعراء ، مما يعني أن التعبير بها لا يمثل شعوراً فردياً لقلّة من الشعراء ، جمعهم فترة زمنية معينة ، أو محيط اجتماعي أو جغرافي محدد ، وإنما يمثل شعوراً أو إراثاً جماعياً لعرب ما قبل الإسلام ، يعبر عن ماض متجذر في الأعماق ، وواقع معاش ، وأمل منشود ، أي أنه يعبر عن ثقافتهم ، وما تمثله أفكار الحرب والناقة والخصوبة في هذه الثقافة .

### مراجع البحث :

- 1- الأب لويس شيخو ، شعراء النصرانية في الجاهلية ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، د . ت .
- 2- ابن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، حققه وفصله وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط5 ، 1401 هـ - 1981 م .
- 3- ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر ، بيروت ، د . ت .
- 4- ابن قتيبة ، كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 405 هـ - 1984 م .
- 5- ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط3 ، 1414 هـ - 1994 م .
- 6- ابن هشام ، السيرة النبوية ، حققها وشرحها ووضع فهرستها: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د . ت .
- 7- أبو زيد القرشي ، جمهرة أشعار العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط2 / 1418 هـ - 1998 م .
- 8- أبو هلال العسكري ، كتاب جمهرة الأمثال ، دار الجيل ، بيروت ، ط2 ، 1408 هـ - 1988 م .
- 9- الأعشى ، ديوانه ، تحقيقه كامل سليمان ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط1 ، د . ت .
- 10- الألوسي ، بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب ، عني بشرحه وتصحيحه وضبطه: محمد بهجة الأثري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د . ت .
- 11- امرؤ القيس ، ديوانه ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ط1 ، 406 هـ - 1986 م .
- 12- بشر بن أبي خازم ، ديوانه ، عني بتحقيقه عزة حسن ، دار الشرق العربي ، بيروت - لبنان ، حلب - سورية ، ط1 ، 1416 هـ - 1995 م .
- 13- النعالي ، قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، د . ت .
- 14- الحصري القيرواني ، زهر الآداب وثمر الألباب ، عارضه بمخطوطات القاهرة وحققه وضبطه وشرحه ووضع فهرسه علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى الباسي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ط2 ، د . ت .
- 15- الخالديان ، كتاب الأشباه والنظائر ، حققه وعلق عليه السيد محمد يوسف ، دار الشام للتراث ، بيروت ، د . ت .
- 16- لخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، تحقيق ودراسة عبد القادر حسين ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط1 ، 1416 هـ - 1996 م .
- 17- زهير بن أبي سلمى ، شعره ، تحقيق فخر الدين قباوة ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ،

- ط 3 ، 1400 هـ - 1980 م .
- 18- سلامة بن جندل ، ديوانه ، صنعة محمد بن الحسن الأحول ، تحقيق: فخر الدين قباوة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 2 ، 1407 هـ - 1987 م .
- 19- الشهرستاني ، الملل والنحل ، تقديم وإعداد: عبد اللطيف محمد العبد ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط 1 ، 1977 م .
- 20- عامر بن الطفيل ، ديوانه ، لايل ، لندن ، ط 1 ، 1913 م ، ص 139 . العصاب: ما يشد به فخذي الناقة أو أدنى منخريها لتدرّ ، ودرت الناقة: إذا حلبت فأقبل على الحالب منها شيء كثير .
- 21- عبد الله الغنامي ، النقد الثقافي ، رؤية جديدة ، مجلة فصول ، القاهرة ، العدد 59 ، ربيع 2002 م .
- 22- عبيد بن الأبرص ديوانه ، تقديم وشرح وتعليق: محمد حمود ، دار الفكر اللبناني ، ط 1 ، 2000 م .
- 23- علي الجندي ، شعر الحرب في العصر الجاهلي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط 3 ، 1966 م .
- 24- عمرو بن كلثوم ، ديوانه ، ضمن دواوين الموسوعة الشعرية المسجلة على قرصين CD ، المجموع الثقافي ، أبو ظبي ، الإصدار الثالث ، 2003 م .
- 25- قيس بن الخطيم ، ديوانه ، تحقيق: ناصر الدين الأسد ، دار صادر ، بيروت ، د . ت .
- 26- كعب بن مالك ، ديوانه: دراسة وتحقيق سامي مكّي العاني ، عالم الكتب ، بيروت ، ط 2 ، 1417 هـ - 1997 م .
- 27- محمد بن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، قرأه وشرحه أبو فهر محمود محمد شاكر ، دار الملني ، جدة ، د . ت .
- 28- محمد سليمان عبد الحفيظ ، أثر المكونات الثقافية في بناء الصور البلاغية ، رسالة دكتوراه ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، 2009 م .
- 29- المرزوقي ، شرح ديوان الحماسة ، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ط 1 ، 1411 هـ - 1991 م .
- 30- المفضل الضبي ، المفضليات ، تحقيق وشرح محمود محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 8 ، د . ت ، المفضلية رقم (121) .
- 31- الميداني ، مجمع الأمثال ، دار ومكتبة الحياة ، بيروت ، 1415 هـ - 1995 م .
- 32- النابغة الذبياني ، ديوانه ، شرح وتقديم عباس عبد الستار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، 1405 هـ - 1984 م .
- 33- نوري حمودي القيسي ، الطبيعة الشعر الجاهلي ، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط 1 ، 1390 هـ - 1970 م .